تلفزيون وأنترنت ومطابع الصحف والكتب والمنشورات الدعائية، توضَعُ كلُّها في الخدمة. وعندما يبدأ الفصلُ الثاني وتُوكَلُ المهمةُ رئيسيّاً لأدوات الفتك، فإنّ أدوات الحرب الإيديولوجية لا تتوقّف عن العمل، وإنما قد تُواصِلُ ذلك بحميّةٍ أكبر.

واليوم يَحْكم الإمبرياليّون على ضحاياهم بالذهاب إلى حافّة الهاوية، ويَسدُّون عليهم كلَّ المنافذ، فلا يجدون من سلاحٍ غيرَ تفجير أنفسهم علَّهم يُلْحقون بهم بعضَ الأذى. إنّ الإمبرياليين يَدْفعون بالجميع إلى طلب الانتحار، بغضّ النظر عن العناوين التي يتمّ تحتها ذلك الانتحارُ.

وإذا كان هؤلاء يَسْطون على ما هو إيتيقي ويوظّفونه لصالحهم، فإنّ المطلوب هو تأميمُ الإيتيقا. فالقيم ليست للخاصّة وإنّما للجميع، والكمالُ والسعادةُ والحريةُ والعدالةُ كلُّها أمورٌ ممكنةٌ للبشريّة قاطبةً.

ينبغي الانتقال، إذن، من أرستقراطية الإيتيقا إلى مشاعيّتها، من ملكيّتها المخصوصة إلى ملكيّتها المعمَّمة. وإذا كان المجتمعُ الرأسمالي يضع قيودًا صارمةً أمام كلّ إمكانية لتحقيق ذلك، فإنّ الإطاحة به تغدو مهمّةً ملحّةً كي تبلغَ البشريةُ اللحظةَ التي ينبجس فيها تفتُّحُها الإيتيقي. وهو ما يعني ضرورةَ الربط بين الإيتيقا والمجتمع الذي يُمثّل حاضنَتها.

وبهذا، فإنّ فهمَنا للإيتيقي ينبغي أن يكون فهمًا عيانيّاً، أيْ ضمن وضع اجتماعيٍّ تاريخيٍّ مخصوص. وإلاّ فإنّ أيّ حديثٍ عنها سوف يكون حديثًا عابرًا للمكان والزمان، لا تُسْنده أيّةُ واقعةٍ ماديةٍ حيّة.

الخاتمة

لا سبيل أمام الأمّة العربية لتحطيم قيودها غير إعلان الحرب على الحرب الإمبريالية، ومواجهةِ إيتيقا الغزو بـ «إيتيقا المقاومة والثورة.» وهذه الأخيرة إيتيقا متمركزةٌ حول غايات أخلاقية كبرى، مثل الكرامة، والشجاعة، والعدل، والحرية، والدفاع عن الأرض والوطن. ومثل هذه الايتيقا لا يُمْكن إلاّ أن تكون في قطيعةٍ تامةٍ مع ذلك الانحرافِ السائدِ الآن، والمتمثِّلِ إمّا في الترويج للقيم الليبرالية والليبرالية الجديدة، أو استحضار قيم ولّى زمانُها تقوم على التكفير وتصويرِ الحرب الراهنة على أنّها حربٌ بين المؤمنين والكافرين!

إنّ ما يتوجّب القيامُ به هو إلحاقُ الهزيمة بالإمبرياليين لا عسكريّاً فقط، وإنما كذلك سياسيّاً وإيديولوجيّاً وأخلاقيّاً. وقد يكون العملُ على هذه الجبهة الأخيرة أكثرَ راهنيةً من أيّ وقت مضى. فالمقاومة على هذا الصعيد تعاني الوهنَ، والسائدُ هو ردود الفعل الماضويّة، حيث الارتدادُ إلى الماضي والغَرْفُ من مفاهيمه ومصطلحاتِه وفتاويه وقيمه، تمامًا مثلما يَحْصل في المجال العسكري، حيث يغدو الصديقُ عدوّاً لا لشيء إلاّ لأنّه يختلف عنّا في المعتقد، فيصبح هدفًا مشروعًا للقتل: فتُؤخذُ الرهائنُ بشكل أعمى، وتُقطع الرؤوسُ في مَشاهدَ بربريّةٍ لا يُضارعها في همجيّتها غيرُ همجيّة الإمبرياليين أنفسهم. وعلى المستوى الاستراتيجي فإنّ ردود الأفعال تلك محكومٌ عليها بالفشل. لذلك فإنّ المطلوب هو مقاومة الإمبريالية بما هو أشدُّ تطوّرًا من أفكارها ونُظُمها وقيمها... لا العكس.

تونس

ملفّات الأعداد القادمة من الآداب:

- **المثقفون العرب والمقاومة العراقية: هل ينبغي دعمُها؟ وكيف؟**
- **الشباب العربي والمشاركة السياسية (III): مصر.**
- **الشباب العربي والمشاركة السياسية (IV): تونس.**
- **أدب الأطفال والناشئة في الوطن العربي.**
- **ما بعد الكولونيالية: أبحاث ودراسات.**

ادعم الآداب، اشتراكًا وتبرُّعًا، كي يبقى صوتك القوميُّ اليساريُّ الحديث عاليًا!